أحبّك.. وأخشاك أيتها الدّليلة

عيسى حسن الياسري

واذكرهمْ متى عادوا
وقد قطفوا « تمورك ».. والسعفَ القديمُ
نراهمْ من بعيدٍ.
ثم نسرع راكضينَ.. نمدّ لهم كفًّا
ونسأل عن وجوهٍ غادرتْنا.. مثلهمْ..
فتفجعُنا الدموعُ
وأحزان النساءِ
وصوتُ رجالنا المخنوق بالعبراتِ..
قد ماتوا..
أخافكِ منذ طفولتي الأولى
واهربُ حين يذكر اسمكِ الفقراءُ
نبكي في ليالي الصيفِ
نذكر أن أحباباً لنا ماتوا هناك
وكانت « الخورهْ »
قبوراً من هشيم السعفِ
تبقى بعد قطف التمر مهجورهْ
تنامُ عصافير الجنوبِ.. ويهدأ البردي
ونصف الليلْ..
كنت أسارع الخطوه
أخاف نخيلك الغافي
أخاف سواقيك الكثيرة آن تفتح جفنها
وتراني عابراً في الليل فوق مياهها
فتحطم الجذافَ
تغرقني إلى القاعِ
ولم أذكر بأن نهاراً واحداً قد حظّ
فوق سفينتي فيها.
مساءً
كان يفترش الحصيرة عند جرف النهرِ
« شيخٌ »
في يديه وشم سعفكِ.. ثم يحكي عن مواسم
صيفكِ المحروقِ
يا لحمى..
وأوبئة الوحول
وعن عشق الصبايا
حين ينضج الرطبُ الشهيُّ
وتمتلىء السلال به
فكيف جمعتِ بين الحبِّ.. والموتِ..؟
وكيف مشيتِ عاريةً
إلى النهر الذي التهمت قيعانه كالنارِ..
وجه « السندبادِ »
و « بدراً »
والطيور الخضرَ وهي تغني فوق سعفكِ
مرةً
في العامِ
ثم تلوذ بالصمتِ....؟

★ ★ ★

تتشابكُ الطرقاتُ.. حين كبرنا.. لم نعد نختارُ
أيّ طريق سوف تبعدنا عنكِ
وتأخذنا إليكِ
وأي طيورنا الخضراء نتبعها
وها أني.. وذات أمسيهْ
رأيت شوارعك المضاءة.. تومئُ..
ثم تفتح لي بابينِ
مملكتينِ..
أو موتينِ
لا أدري..
وما أدريه.. حين أفقتُ رأيتُ كفي تستريح
بكفّك العذراءِ
أي صبيّةٍ أنتِ
رأيت غصونها مسدولةً فوقي.. تغطّيني..
وتمطر صيف وجهي بالرذاذ.. وماء « الشطِّ »
- مرتجفاً أراكِ..
- أخافُ..
وقيل.. بأنكِ امرأةٌ
تحب الداخلين مدينتها
تعانقهم طوال الليل باكيةً
وعند الصبح تصلبهم على نخلهْ

★ ★ ★

أباركها عواصف ذاك الليل
أم استنزل اللعنهْ
عليها..
حين أغرقت السفينة عند شاطئكِ المسيَّج
بالطيورِ
وأقواس النخيلِ
وشعرك الأسودْ
لماذا كنتِ واقفةً هناك أمام الريحِ
ترتجفين كالسعفهْ
وشيكاً
كنتُ أغرقُ.. ثم تصمتُ هذه الشّفّهْ
فمن أغواكِ بي حتى..
تعيدني إلى الضفّه؟

★ ★ ★

أحبكِ..
لست أملك إلا أن أحبكِ بعد أن طوّفتِ
بي نخلَ الجزيرةِ
والقرى المغسولة الأكواخ بالشمسِ
أحبك مثل خوفي منكِ أيتها الصبيةُ
أن يجيء الصيفْ
ثم نقصَّ « تمرك »
والسعفَ القديمَ
ويرجع الباقون محتشدين
بالغلّهْ
ولا أعود إلى « أمي »

العراق